

القصص الكنى

الحلقة الثانية
قصص الستيرة

الواحد

عبدالحميد جودة السحبار

٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبَّكَ الْأَكْرَمَ ، الَّذِي عَلَمَ بِالْقَلْمَنْ ، عَلَمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

(قرآن كريم)

عاش محمدٌ في بيتٍ خديجةٌ ؛ كان يُحبُ زوجته ،
وكان زوجته تحبه .

وكان محمدٌ في ذلك الوقت يميلُ إلى التفكير ،
فكان يُطيلُ التأمل ، وخدِيجةٌ تلاحظُ سُكونَه ،
فتترُكُه لأفكارِه ، ولا تضايقُه بكثرةِ حديثِها ، كما
تفعلُ النساءُ مع أزواجِهن . كانت خديجةٌ عاقلة ،
فكانَت تتركُ زوجها إلى ما تميلُ إليه نفسه .

كان محمدٌ يعودُ من الكعبة ، فيفكِّر في أمرِها ،
وفي الثلاثينَ والستينَ صنَّما التي بها ، فيعجبُ من
قومِه الذين يعبدونَ حجارةً ينحوونها بأيديهم ،

حجارة لا تسمع ولا ترى ، ولا تستجيب لدعوة
عبداتها الذين يدعونها .

اهتدى محمد إلى أن هذا الكون إله واحدا هو
الذى خلق الشمس والقمر ، والسماء والأرض ،
والأنهار والجبال ، والإنسان والحيوان ؛ وأن هذا
الإله الواحد هو الذى يجب أن يتوجه إليه الناس فى
دعوتهم ، وهو وحده المستحق للعبادة ؛ لذلك كان
يأخذ طعامه وشرابه ، ويدهب إلى غار حراء ، بعيدا
عن ضوضاء الناس ، يعبد الله فى ليله ونهاره ،
وكان يمكث فى الغار شهرا من كل سنة .

كان يحب الخلوة ، ففى الخلوة اتصال الإنسان
بالكون ، وفيها يفرغ القلب من أشغال الدنيا ،
ويصفو الذهن وتشرق أنوار المعرفة . كان محمد

يَقْضِي الشَّهْرَ فِي عِبَادَةٍ ، يُطْعَمُ مِنْ يَمْرُّ بِهِ مِنْ
الْمَسَاكِينِ ، مِنَ الْكَعْكِ وَالزَّيْتِ الَّذِي يَحْمِلُهُ مَعَهُ .

وَكَانَ إِذَا نَامَ فِي الْغَارِ ، رَأَى فِي نَوْمِهِ رُؤْيَى ، فَإِذَا
اسْتِيقَظَ تَحْقَقَتْ رُؤَاهُ ، فَقَدْ صَفَا رُوْحُهُ ، وَاتَّصَلَ
بِاللَّهِ .

ذَهَبَ مُحَمَّدٌ إِلَى غَارِ حِرَاءَ ، وَهُوَ فِي الْأَرْبَعينَ مِنْ
عُمْرِهِ ، يَحْمِلُ طَعَامَهُ ، يَصُومُ النَّهَارَ يَتَبَعَّدُ ، وَيَقُومُ
اللَّيْلَ يَتَهَجَّدُ . وَغَابَتِ الشَّمْسُ ، وَالْتَّفَّ مُحَمَّدٌ فِي
عَبَائِتِهِ ، وَوَضَعَ رَأْسَهُ لِنَامٍ قَلِيلًا ؛ كَانَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةُ
مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ هِيَ لِيْلَةُ الْقَدْرِ .

وسيع محمد صوتا يقول له وهو نائم :
- أقرأ .

فيقول محمد له :
- ما أقرأ .

فيحس شيئا يضممه ، حتى يكاد يكتُم أنفاسه . ثم
يترکه ويقول :
- أقرأ .

فيقول محمد : ما أقرأ .

فيضممه مرة ثانية ، حتى يكاد يكتُم أنفاسه ، ثم
يترکه ويقول :
- أقرأ .

فيقول محمد : ما أقرأ .

فيضممه مرة ثالثة ، حتى يكاد يكتُم أنفاسه ، ثم

يقول :

— اقرأ .

فيقول محمد :

— ماذا أقرأ ؟

فيقول الملك :

— اقرأ باسم ربك الذي خلق .

خلق الإنسان من علقة .

اقرأ وربك الأكرم .

الذي عالم بالقلم .

علم الإنسان ما لم يعلم .

واستيقظ محمد من نومه فزعًا ، وخرج من الغار
مهرولا ، وإذا به يسمع صوتا من السماء ، يقول :
— يا محمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل . فرفع
محمد رأسه إلى السماء ينظر ، فإذا جبريل قدماه في

أَفْقِ السَّمَاءِ ، يَقُولُ :

— يَا مُحَمَّدَ ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَنَا جَبَرِيلُ .
فَوَقَفَ مُحَمَّدٌ يَنْظُرُ إِلَيْهِ ، فَمَا يَتَقَدَّمُ وَمَا يَتَأْخُرُ ،
وَجَعَلَ يَصْرِفُ وَجْهَهُ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ ، فَلَا يَنْظُرُ
فِي نَاحِيَةٍ مِّنْهَا إِلَّا رَأَاهُ .

ظَلَّ مُحَمَّدٌ ثَابِتاً ، لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأْخُرُ ، وَأَرْسَلَتْ
خَدِيجَةُ تَبْحَثُ عَنْهُ ، وَهُوَ وَاقِفٌ فِي مَكَانِهِ لَا يَتَقَدَّمُ
أَمَامَهُ ، وَلَا يَرْجِعُ وَرَاءَهُ .

رجع محمدٌ إلى خديجة ، وهو يضطرب ، فقالت
له :

— يا أبا القاسم ، أين كنت ؟ فوالله لقد بعثتُ
رُسُلِي في طلبِك ، حتى بلغوا مكة ، ورجعوا لي .
فقال لها وهو يرتجف :

— زَمْلُونِي . زَمْلُونِي .

فراحت خديجة تُغطيه ، حتى إذا هدأ ، قصَّ عليها
ما رأى ، وقال لها :

— لقد خَشِيتُ على نفسي .
فقال له خديجة في إيمان :

- كلا . أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبدا ، إنك
لتصلِّي الرَّحِيم ، وتصدُّقُ الحديث .

و جاء جبريل إلى محمد ﷺ ، وأنزل عليه القرآن :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَثَّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ،
وَثِيَابَكَ فَطَهَّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ، وَلَا تَمْنَنْ
تَسْتَكِثِرْ ﴾ .

نام محمد ليستريح ، وخرجت خديجة إلى ورقة ابن نوفل ، وكان ابن عمها ، وقصت عليه ما رأى محمد . كان ورقة قرأ الكتب ، ودرس التوراة والإنجيل ، فقال :

- والذى نفس ورقة بيده ، لكن كنت صدقتنى
يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكابر (جبريل)
الذى كان يأتى موسى ، وإنَّه لنُبِّئُ هذه الأمة ، فقولى
له فليثبت .

رجعت خديجة إلى رسول الله ، فأخبرته بقول
ورقة . وخرج رسول الله يطوف بالكعبة ، فلقيه
ورقة وهو يطوف ، فذهب إليه ، وقال له :
- يا بن أخي ، أخبرني بما رأيت وسمعت .
فأخبره رسول الله ، فقال له ورقة :
- والذى نفسى بيده ، إنك لنبي هذه الأمة ،
ولقد جاءك الناموس الأكبر ، الذى جاء موسى ،
ولتُكذبَنَ ولتُؤذِنَ ولتُخْرِجَنَ ولتُقاتَلَنَ ، لكن أنا
أدركتُ ذلك اليوم لأنصُرَنَ الله نصراً يعلمه .

أَصْبَحَ جَبْرِيلُ يَجِيءُ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ ، يُوحِي إِلَيْهِ أَوْامِرَ
اللَّهِ ، فَأَرَادَتْ خَدِيجَةُ أَنْ تَشْبَهَ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي يَرَاهُ
زَوْجُهَا ، فَقَالَتْ لَهُ :

— أَى أَبْنَى عَمَّ ، أَتَسْتَطِعُ أَنْ تَخْبُرَنِي بِصَاحِبِكَ هَذَا
الَّذِي يَأْتِيكَ إِذَا جَاءَكَ ؟

قَالَ مُحَمَّدٌ لَهَا :

— نَعَمْ .

فَجَاءَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

خَدِيجَةُ :

— يَا خَدِيجَةُ ، هَذَا جَبْرِيلُ قَدْ جَاءَنِي .

فقالت خديجة :

— قم يا بن عمّي ؛ فاجلس على فخذِي اليسرى .

فقام رسول الله فجلس عليها وقالت خديجة :

— هل تراه ؟

قال رسول الله .

— نعم .

قالت له خديجة :

— فتحول ، فاجلس على فخذِي اليمني .

فَتَحَوَّلَ رسول الله على فخذِها اليمني ، فقالت :

— هل تراه ؟

قال :

— نعم .

قالت :

— فتحول فاجلس في حجرى .

فتحَّوْلَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَجَلَسَ فِي حِجْرِهَا ، قَالَتْ :

— هَلْ تَرَاهُ ؟

قَالَ :

— نَعَمْ .

فَكَشَفَتْ عَنْ وَجْهِهَا وَرَسُولُ اللَّهِ جَالِسٌ فِي حِجْرِهَا ، ثُمَّ قَالَتْ لَهُ :

— هَلْ تَرَاهُ ؟

قَالَ :

— لَا .

قَالَتْ :

— يَا بْنَ عَمٍّ ، اثْبِتْ وَأَبْشِرْ ، وَاللَّهِ إِنَّهُ مَلِكٌ ، وَمَا هَذَا بِشَيْطَانٍ .

ذهب محمدًا إلى غار حراء ، وانتظر أن يرى
جبريل ، ولكن مرّت مدة طويلة ولم يرها ، فحزن
حزنا عميقا ، ظنَّ أنَّ الله تاركه ، وفيما هو في
حزنه إذ سمع صوتا ينادي :
- يا محمد ، إنك رسول الله حقا .

رفع محمد بصره إلى السماء ، فإذا بالملك الذي
جاءه بحرا ، قاعد على كرسى في السماء ، ففرح
بعودته ، وأخذ جبريل يعلمه القرآن ، قال :
﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ، مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ
وَمَا قَلَى (أي ما ترك ، وما أبغضك منذ أحبك)

وَلَا آخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ
رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ، أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ، وَوَجَدَكَ
ضَالًا فَهَدَىٰ ، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ، فَأَمَّا الْيَتِيمُ فَلَا
تَقْهِرُ ، وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرُ ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
فَحَدَّثَ .